

التاريخانية

ارتبطت التاريخانية بشكل وثيق بالفيلسوف الألماني هردر (Johann Herder ١٧٤٤ - ١٨٠٣) الذي رفض الأخذ بالأفكار التي نادى بها فلسفة عصر الأنوار "القرن ١٨" حول فكرة التقدم التي تطبع تاريخ البشرية ، وأن المرحلة التي يصلها التاريخ ما هي إلا تراكم للخبرات السابقة عن مضمون التقدم. إلا أن الكلمة من إبداع كارل فرنر ١٨٧٩ في معرض تعريفه لفلسفة فيكو Giambatista Voco (١٦٦٨ - ١٧٤٤) الذي أكد أن العقل البشري لا يدرك إلا ما يصنع ، أي المنشآت التي تكون العالم التاريخي.

التاريخانية (Historicism) أي التاريخ كمبدأ وحيد لتفسير كل الظواهر المرتبطة بالإنسان ، وهدفها كشف قوانين التطور والتغير الاجتماعي ، وفهم التبدلات الحضارية الكبرى في تاريخ الإنسان ، وهي في حقيقتها اختراق فلسفي لعلم التاريخ ولمحاله العام ، الذي كان حكراً على المؤرخين أنفسهم في وصف الماضي ، والاكتفاء بسرد أحداثه بتسلسلها الزمني المنتظم ، من أقصى نقطة في الماضي السحيق ، إلى الزمن المعاش ، كما فعل المؤرخون المسلمون ، وهذا السرد يكون إجمالاً بحياد المؤلف ، ويُعرض من دون تمحيص أو نظر فلسفي.

ويرى عبد الله العروى (مفكر وروائي وكاتب مغربي) "أن التاريخانية هي فلسفة كل مؤرخ يعتقد أن التاريخ وحده العامل المؤثر في أحوال البشر ، بمعنى أنه وحده سبب وغاية الحوادث" ، فالتاريخاني يركز جهوده على تحديد العلة النهائية ؛ أي ما يتجاوز الخاص والفردى في التطور ومسيرة الحضارة الإنسانية ، لاستخلاص ما هو عام وكلّي مما هو متكرر في الأحداث والوقائع التي لا تعد ولا تحصى ، للوصول إلى ماهية ثابتة أو مبدأ مفسّر لحركة التاريخ. وعلى هذه الأرضية تضع التاريخانية الإنسان في قلب العملية التاريخية ، إذ تستحضر الماضي بشكل مستمر لتستمد منه اللحظات المضيئة في تاريخ كل جماعة لتحقيق التغيير بواسطتها ، فالحركة الإنسانية في عصر النهضة قد استحضرت التراث القديم ، والإصلاح البروتستانتي استمد أصول فكره من المسيحية الأولى.

وحسب منهج التاريخانية فإننا لا نستطيع الحكم على الأفكار أو الحوادث أو المفاهيم والمعتقدات والأديان ونظم الجماعات ، إلا بنسبتها للوسط التاريخي الذي ظهرت فيه ؛ إذ النظر إليها من ناحيتها الذاتية يوقعنا في التباسات اختزالية مقيته ، بينما نسبتها للوسط التاريخي ستضعها في إطار المعالجة والرؤية الموضوعية لخصائصها وتركيبها ومظهرها ، لذا فلا مناص من ضرورة النسبة الحتمية للتاريخ ؛ إذ سر كل شيء وروحه هو التاريخ ، مصداقاً لقول كارل ماركس: "لا علم إلا بالتاريخ".

إن الحتمية التي تعنى أن نفس الشروط تؤدي إلى نفس النتائج ، يسهل ملاحظتها والتأكد من فاعليتها عندما نكون إزاء ظواهر طبيعية أو أشياء مادية ، أما عندما يتعلق الأمر بالظواهر والحالات النفسية والاجتماعية ، فإن تطبيق مفهوم الحتمية كثيراً ما يتعذر ، ذلك لأن وقوع سبب معين لا يؤدي دائماً إلى حدوث نفس النتيجة في مجال النفس والمجتمع.

لذا فقد وجهت عدة انتقادات للتاريخانية ، كان أبرزها في الفكر المعاصر كارل بوبر Karl Popper (١٩٠٢ - ١٩٩٤) الذي قدم أعرق مساهمة نقدية لأسسها المعرفية ، بدأها بالسؤال: هل هناك خطة للتاريخ ، وإذا كانت هناك خطة فما هي ؟ وانتهى فيها إلى أن التاريخانية خطأ من أقصاها إلى أقصاها ، فالتاريخاني يرى أن التاريخ مثل مجرى الماء ، مثل النهر الجاري ، ويعتقد أنه يستطيع أن يتوقع أين يمر الماء. التاريخاني يعتقد أنه أكثر ذكاء ، إنه يرى الماء ويتصور أن بإمكانه أن يتكهن بالمستقبل. هذا الموقف خاطئ كلية ، فإمكاننا أن ندرس التاريخ كما نشاء ، لكن هذه الفكرة الخاصة بالنهر ليست أكثر من مجاز ولا علاقة لها بالواقع وبالحقيقة ، يمكن أن ندرس ما مضى ، لكن ما مضى قد انتهى ، وانطلاقاً من هذا فإننا لسنا في المستوى الذي يسمح لنا بالتنبؤ بأي شيء كان ، نتابع الاتجاه وعلينا فقط وببساطة أن نتحرك وأن نحاول جعل الأشياء أفضل ، فاللحظة الحاضرة هي اللحظة التي انتهى فيها التاريخ ، فليس بمقدورنا أن ننظر إلى المستقبل ونحن نعتقد أنه بإمكاننا أن نتكهن به بفضل المجرى أو الاتجاه.



بقلم

رئيس التحرير